الفصل الثاني
بـدايـة حُـب

انتهى أدهم من امتحاناته في الشهادة الإعدادية، وظهرت النتيجة، وعلي غير المتوقع نجح أدهم بتفوق مما أبهر معلميه، وزملائه، وكذلك والدته التي استغلت ذلك التفوق فذهبت إلى إدارة مدرسة أدهم بصحبة المقدم كامل ابن عم زوجها ليقنعاها ببقاء أدهم داخل المدرسة، وبالفعل وافقت إدارة المدرسة على استمرار أدهم بها خاصة بعد أن تعهد المقدم كامل بحسن سلوك أدهم، و خرج الثلاثة من المدرسة، وأصر المقدم كامل على دعوة نادية وأدهم على الغداء فجلس ثلاثتهم داخل إحدى محال الطعام الفاخرة الشهيرة، وكان كامل يعامل أدهم بحب، وحنان، ورفق مما جعل أدهم يميل إليه ويشعر نحوه بعاطفة كان محروماً منها.

ومرت أربع سنوات، ونجح أدهم في سنته الأولى في دراسته داخل كلية الإعلام التي دخلها بعد أن نجح بتفوق في الثانوية العامة، ولقد تبدل حاله تماماً ولم يعد لديه تلك الميول العدوانية التي كانت لديه في السابق، كما بدأ بركان الحب يثور داخل أعماق قلبه فأشعله شوقاً وحنيناً نحو ديما ابنة عمه توفيق التي حضرت مع والديها لزيارته هو ووالدته عدة مرات، وفي أحد أيام الصيف أتى المهندس توفيق لزيارة نادية زوجة أخيه، وابنها أدهم، وكان معه زوجته، وأبناءهما الثلاثة أسامة الطالب بكلية الهندسة، وهاني الطالب

بكلية التجارة، و ديما الفتاة الذكية بديعة الحسن فهي شقراء ذات عيون زرقاء، وجسد رشيق، ولقد نجحت هذا العام بتفوق في الثانوية العامة، ولقد استقبلهم أدهم ووالدته استقبال حار، وكان أدهم كثير النظر في خلسة إلى ديما، وكان كلما نظر إليها كلما ازداد بركان الحب داخل قلبه إنفجارا"، وطلب المهندس توفيق من نادية أن يصطحبها هي وأدهم معه وأسرته إلى مدينة المعمورة بالإسكندرية لقضاء العطلة الصيفية فوافقت نادية على سفر أدهم مع عمه على أن تلحق هي بهما بعد ذلك، وبالفعل سافرت أسرة المهندس توفيق إلى الإسكندرية مصطحبة معها أدهم، وهناك حيث الهواء الساحر الذي يجعل الأبدان تنتشي بنشوة فرح، وسعادة لا مثيل لها، والذي يملئ القلوب عشقاً لتلك المدينة الجميلة الساحرة التي تلهم الشعراء أرقى أشعارهم، والرسامون أجمل لوحاتهم كما أنها تقذف الحب في القلوب قذفاً، ولا يستطيع أي شخص كان مقاومة هذا الحب أبداً، واصل بركان الحب انفجاراته وثوراته داخل قلب أدهم فابتدأ ينظر إلى ديما نظرات مختلفة عن السابق. ابتدأ يشعر بآلام الفراق عندما يحين موعد النوم ويذهب كل منهما إلى غرفته، ابتدأ يشعر بالاشتياق، والحنين إليها في كل لحظة تبتعد فيها عنه. ولأول مرة جلس أدهم أمام التلفاز يستمع إلى أغنية يشدو بها عبد الحليم حافظ، وهي أغنية جواب التي يشدو بها العندليب في فيلم البنات والصيف.

أخذ أدهم يستمع الي الأغنية بإمعان شديد، وتارة ينظر إلى التلفاز، وتارة ينظر إلى ديما التي كانت هي ووالديها وشقيقاها يجلسون يشاهدون الفيلم.

كان أدهم يختلس النظرات إلى ديما خشية أن يلاحظ أحد أفراد أسرتها تلك النظرات المؤججة بنار الحب، وبينما هو ينظر إليها بمكر رأها هي الأخرى تنظر إليه فالتقت عيناهما، وفوجئ أدهم بابتسامة ساحرة منها ألهبت وجدانه، وأججت عاطفته، ومن هنا تملك الجوىّ من أدهم وأصبح قلبه ملعباً كبيراً تلهو به الأشواق، والحنين، والغيرة.

الغيرة من خالد ابن صديق المهندس توفيق، وخالد شاب وسيم، وهو طالب في كلية الهندسة، وتقيم أسرة خالد في الشقة المجاورة لشقة عائلة المهندس توفيق، وكانت الأسرتان أسرة المهندس توفيق وأسرة والد خالد لا يفترقان فهم يذهبون للبحر معاً، وفي الليل يخرجون للتنزه معاً.

بعد أن انتهت أغنية عبد الحليم حافظ جال بخاطر أدهم أن يكتب خطاباً إلى ديما، وبالفعل قام أدهم بشراء كراسة عادية، وقلم، واختلي بنفسه في الغرفة الخاصة به هو وأسامه، وهاني، وجلس يكتب الخطاب، وبينما هو يكتب دخلت عليه ديما فارتبك أدهم وقام بإخفاء الخطاب خلف ظهره.

قالت ديما وهي تبتسم: ماذا تفعل هنا في الغرفة بمفردك، وماذا تخفي خلف ظهرك؟

أرتبك أدهم وقال: ولماذا تسألين؟ هذا شيء لا يخصك.

قالت له وعيناها تحاول صيد عيناه التي يهرب بها بعيداً:

_ حسناً. لماذا إذن كنت تنظرلي ونحن نشاهد الفيلم؟

لوهلة نظر إلى عينيها لكنه لم يتحمل بريقهما فهرب بنظره بعيداً عنهما وقال: ألم تكوني أنت أيضاً تنظرين لي. فلماذا؟

شعرت ديما بحرج فقامت بتغيير دفة الحديث وقالت: أتحب عبد الحليم حافظ؟

ابتسم أدهم وقال: هذه هي المرة الأولى التي أسمعه فيها ولكني أحببته.

قالت ديما وقد تمكنت عينيها من اصطياد عينيه: أنا أيضاً لم أسمع له من قبل، ولكن يبدو أني سأسمعه كثيراً بعد ذلك، والآن هيا أخبرني ماذا تخفي خلف ظهرك.

ارتبك أدهم وقال: لا لن أخبرك.

قالت بابتسامة جذابة: عامة أنا أعرف ما الذي تخفيه.

ابتسم أدهم بسخرية وقال: حقاً؟ أخبريني إذن ماذا أخفي خلف ظهري إن كنت ذكية.

قالت ديما بثقة:

_ خطاب. أنت تخفي خلف ظهرك خطاب.

****

داخل صيدلية الدكتورة نادية التي وقفت تتحدث مع أحد عملاء الصيدلية بينما مساعديها الثلاثة ينشغل كل منهم في عمل مع المترددين على الصيدلية.

انصرف الشخص الذي كان يقف مع الدكتورة نادية، وأمسكت هي سماعة الهاتف الأرضي، وأخذت تتحدث مع أحد شركات الأدوية بخصوص بعض الأدوية الناقصة والمطلوبة للصيدلية، وبينما هي تتحدث في الهاتف دخل إلى الصيدلية رجلاً غريباً يرتدي معطفاً أسود، وهو رجلاً وسيماً ذو ملامح جادة. دخل الرجل إلى الصيدلية وتجول بها، والجمود يرتسم على وجهه ثم اتجه نحو نادية التي لم تراه بسبب انشغالها في المكالمة الهاتفية، وأخيراً أنهت نادية المكالمة فاقترب منها الرجل وقال مبتسماً: مساء الخير يا دكتورة نادية.

رأت نادية الرجل فظهر عليها الارتباك الشديد، وظلت صامتة لا تعرف ماذا تقول فاستطرد الرجل قائلاً: كيف حالك يا دكتورة؟

امتعضت نادية، وقالت بصوت هامس: أنت؟! ما الذي أتى بك إلى هنا؟

قال الرجل الغريب بصوت خفيض: اشتفت إليك. مضت عدة سنوات على آخر لقاء لنا، ترى ماذا فعلت بدوني خلال تلك الفترة، وكيف حال أدهم؟

ظهر الغضب على وجه نادية، وقالت وهي تكتم انفعالها حتى لا يلاحظ موظفو الصيدلية شيئاً: أنت ليس لك شأن بأدهم. أخرجه من راسك تماماً أفهمت؟

ابتسم الرجل الغريب ابتسامة سخرية وقال: ليس لي شأن بأدهم وأخرجه من رأسي. أوامرك مطاعة يا سيدتي.

ثم استطرد الرجل بصوت غليظ: هذا في أحلامك فقط.

بدا الذعر على وجه نادية ثم سار الرجل، وغادر الصيدلية بينما ظلت نادية شاردة وارتسم القلق على وجهها فقال لها الدكتور شريف مساعدها: ماذا كان يريد ذلك الرجل يا دكتور؟

خرجت نادية من شرودها وقالت بتوتروارتباك: لا شيء. لا تهتم.

****

بدا الاندهاش على وجه أدهم وقال لديما: ما هذا؟ كيف عرفت ما أخفيه خلف ظهري؟

ضحكت ديما وأشارت إلى الكراسة، والقلم الموضوعان على المكتب الصغير أمام أدهم وقالت: هذه الكراسة، وهذا القلم وتركيزك في أغنية عبد الحليم. مؤكد كنت تكتب خطاباً.

قال أدهم: حسناً أيتها الذكية، هيا أكملي عبقريتك، وأخبريني لمن كنت أكتب الخطاب؟

ابتسمت ابتسامة رقيقة، ونظرت إلى عيني أدهم وقالت: مؤكد لمن تحبها.

قالتها وتحركت لتغادر الغرفة بينما وقف أدهم يتابعها بعينيه، ودقات قلبه تتزايد وتكاد تصرخ قائلة: أرجوك لا تذهبي. أرجوك أبقي معي.

في الصباح الباكر وصلت الدكتورة نادية إلى شقة المهندس توفيق في المعمورة، ورحب بها الجميع ترحاباً شديداً، وفرح أدهم بقدومها كثيراً، وجلس الجميع سوياً يتناولون طعام الإفطار ثم اتجهوا جميعاً إلى شاطئ البحر، وهناك التقوا بصديق المهندس توفيق وأسرته، وسريعاً اتجه جميع الأبناء إلى البحر، وأخذ أدهم يمرح مع ابني عمه أسامة، وهاني بينما بالقرب منهم كانت ديما وخالد ابن صديق والدها يقذفان بعضهما بالماء، ويضحكان بشدة، وقام خالد بحملها وقذفها في البحر، وشاهد أدهم هذا فغضب، ووقف ينظر إلى خالد نظرات غاضبة مخيفه ثم خرج من البحر، وبعيداً عنهم وقف الرجل الغريب ذو المعطف الأسود على الشاطئ يتابع ما يحدث.

خرج الجميع من البحر وجلسوا على الشاطئ وارتدت ديما روباً فوق لباس البحر، وبحثت بعينيها عن أدهم فوجدته انعزل عن الجميع، وجلس بعيداً وحيداً يبدو عليه الحزن فذهبت إليه مبتسمة وقالت: لماذا تجلس بعيداً هكذا؟

لم يجيبها أدهم فاستطردت ديما كلامها وقالت: لماذا لا تتحدث؟

واصل أدهم صمته فاستطردت ديما مرة أخرى وقالت: يبدو إنك غاضباً من شيء. أخبرني من الذي أغضبك؟

نظر إليها أدهم ونهض من مجلسه وسار مبتعداً عنها فنظرت إليه دهشة ثم أسرعت خلفه، وبالفعل لحقت به، ووقفت أمامه فأشاح بوجهه عنها لكنها قالت منفعلة: لماذا تتصرف هكذا؟ ولماذا لا تنظر لي؟ هيا أخبرني ماذا يغضبك.

قال أدهم منفعلاً: وهل تظنيني جماداً ليس لديه مشاعر حتى لا أغضب وأنا أرى هذا الذي أسمه خالد يحملك وأنت في قمة السعادة معه؟

وضعت ديما يديها على خاصرتيها وقالت بجدية: وما الذي يغضبك من شيء كهذا؟

نظر أدهم إلى عينيها فالتقت أعينهما للحظات أفصحت فيها الأعين عما يختلج في قلبهما، ولكن أدهم سار مبتعداً عن ديما وهو يقول: فتاة غبية.

ركضت ديما خلفه حتى وصلت إليه ووقفت أمامه قائلة: أنا لست غبية، ولكنك أنت الذي لا تجرؤ على قول سبب غضبك من تصرفات خالد معي.

قال أدهم منفعلاً: وفي رأيك ما الذي يجعلني غاضباً من شيء كهذا؟

نظرت إلى عيناه وقالت بصوت هادئ: هل تحبني يا أدهم؟

اضطرب قلبه بشدة فور سماعه هذا السؤال، وسبح بعينيه داخل عينيها الزرقاوان، وقال بصوت حنون: نعم أحبك. أحبك يا ديما.

ابتسمت ديما وقالت: أحقاً تحبني يا أدهم؟

قال أدهم: بل أذوب بك عشقاً، ولكن يبدو أنك تحبين ذلك المدعو خالد.

مالت برأسها للأسفل، ونظرت إلى رمال الشاطئ وقالت بخجل: لا يا أدهم.. أنا أحبك انت.

تهلل وجه أدهم فرحاً وقال بسعادة: تحبيني؟ أتحبينني حقاً؟

قالت ديما وهي تنظر إلى عيناه: كنت أظنك تعرف ذلك مثلما كنت أعرف إنك تحبني.

قال أدهم: وهل كنت تعلمين إني أحبك؟

قالت ديما مبتسمة: كل نظراتك لي كانت تخبرني إنك تحبني، وكنت أظن أن عيناي أخبرتك إني أيضاً أحبك، ولكنك كنت غبياً لا تفهم حديث العيون.

قال أدهم بجدية: وطالما تحبيني لماذا تتصرفين هكذا مع خالد؟

ابتسمت ديما ابتسامة واسعة وقالت: يبدو إنني أحببت شخصاً غبياً بالفعل. لقد كنت أفعل ذلك فقط لإثارة غيرتك أيها الذكي، وها قد نجحت خطتي.

قال أدهم مبتسماً: يا لك من خبيثة يا حبيبتي.

ووصل إليهما نداء أسامة عليهما فأخرجهما مما هما فيه، وسار الإثنان متجهان إلى حيث تجلس العائلة.

******

في المساء أصر الشباب أن يذهبوا إلى مدينة الملاهي فرضخت لهم الأسرتان، وهناك أخذ خالد يتقرب ويتودد إلى ديما لكنها كانت تصده وتبتعد عنه حتى لا يغضب أدهم، ولكن خالد الذي بدا عليه حب ديما لم يبالي بذلك الصد، واستمر في محاولاته التقرب إليها فقام بشراء لعبة من الفرو على هيئة دب أحمر اللون، وذهب ليعطيه لها فلم تستطيع ديما أن ترد هديته، وشكرته مبتسمة، وأخذ الإثنان يتحدثان كثيراً ويضحكان مما أغضب أدهم بشدة، وسار بجوار والدته التي لاحظت تغيره فقامت بمداعبة شعره بحنان.

عادت الأسرتان من الخارج، وتجمعت في شقة المهندس توفيق عم أدهم، وكان الجميع في حالة من السعادة عدا أدهم وديما فلقد قاطع أدهم الكلام معها تماماً فبدا على وجهيهما الحزن، وبينما هم جالسون تطرق حديث والد خالد والمهندس توفيق إلى خالد وديما فقال والد خالد ضاحكاً:

ـ يبدو يا صديقي توفيق أن ابني خالد مال إلى ابنتك ديما، فما رأيك في هذا الموضوع؟

ضحك المهندس توفيق وقال: هذا كلام سابق لأوانه كثيراً يا صالح. ديما انتهت من الثانوية العامة منذ شهر واحد فقط، ومازال أمامها سنوات لتنتهي من تعليمها كما أن خالد مازال طالباً هو الآخر.

قال المهندس صالح والد خالد: الأيام تمر بسرعة يا صديقي، وأنا أريد أنا أزيد أواصر الصداقة بيننا بذلك النسب.

قال المهندس توفيق مبتسماً: طبعاً ذلك يسعدني فأين سنجد أفضل من خالد.

قال صالح: لكن أرجو أن ديما حينئذ توافق ولا تعترض.

قال المهندس توفيق: أنت لا تعرفني جيداً يا صالح فأنا عندما أتخذ قراراً فلا مجال للمناقشة، وديما مؤكد ستنصاع لأمر أنا قد قررته.

قال صالح ضاحكاً: أنت ديكتاتور إذن يا صديقي؟

قالت زوجة المهندس توفيق: للأسف هو فعلاً كذلك، وطوال سنوات زواجنا لم أستطيع إثنائه عن قرار واحد.

قال صالح مبتسماً محدثاً ابنه خالد: فلتسعد يا بني فستكون ديما زوجة لك مادام عمك المهندس توفيق راضياً عنك.

بدا عدم الرضا من ذلك الحديث على وجه ديما فغادرت المكان، ودلفت إلى غرفتها، وكذلك فعل أدهم، وجلس على حافة فراشه مهموماً حزيناً، ودخلت عليه والدته وأغلقت الباب، واتجهت إليه واحتضنته قائلة:

_ أنا أعلم إنك تحب ديما، ولقد أغضبك كلام عمك مع والد خالد. لكن لا تهتم يا حبيبي بذلك الكلام فلو كانت ديما تحبك مثلما تحبها فلن يستطيع العالم كله أن يفرق بينكما.

في صباح اليوم التالي جلست عائلة المهندس توفيق تتناول طعام الإفطار، وبينهم جلس أدهم ووالدته الدكتورة نادية، وبينما هم كذلك رن هاتف المهندس توفيق المحمول فقام بالرد، وظهرت الدهشة، والحزن على وجهه وهو يستمع إلى صراخ المهندس صالح والد خالد الذي يحدثه ثم وضع الهاتف جواره وهو في حالة من الدهشة والحزن الشديد وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله. إنا لله وإنا إليه راجعون.

نظر إليه الجميع بقلق، وسألته زوجته قائلة بقلق: ماذا حدث يا توفيق؟

قال المهندس توفيق بحزن شديد: لقد قتل خالد.

صرخت ديما ووالدتها بينما ارتسمت الدهشة على الآخرين.

وقالت الدكتورة نادية بدهشة شديدة: قتل؟ كيف ذلك؟ ومن الذي قتله؟

قال توفيق بحزن: لم يخبرني صالح. والآن سأذهب إليه لأقف بجواره في تلك المصيبة.

خيم الحزن على أسرة المهندس توفيق كما خيم على أدهم، ووالدته، وجلس الجميع في غرفة الإستقبال في انتظار عودة المهندس توفيق ليقص عليهم ما حدث، وعاد إليهم المهندس توفيق حزيناً فقالت له زوجته: ما الذي حدث بالضبط يا توفيق، ومن الذي قتل خالد؟

جلس المهندس توفيق وزفر أنفاساً حارة ثم قال، والجميع ينظر إليه مترقبين ما سيقوله: يبدو أنه لص دخل إلى غرفة خالد أخذ يعبث بمحتويات غرفته فرأه خالد، واشتبك معه فقام اللص بطعنه بسكين حاد عدة طعنات أودته قتيلاً.. قالت الدكتورة نادية: وكيف عرفت الشرطة أن من فعل ذلك لصاً؟

قال توفيق: لقد وجدوا محتويات غرفة خالد مبعثرة كما وجدوا خالد ملقياً في وسط الغرفة. كما قال المهندس صالح إنه كان يضع مبلغاً من المال داخل حقيبة جلدية صغيرة، وأن تلك الحقيبة اختفت.

نهض المهندس توفيق، ودلف إلى حجرته، وتبعته زوجته، وغادرت الدكتورة نادية غرفة الإستقبال وكذلك أسامة، وهاني بينما ظل أدهم جالساً، وبالقرب منه جلست ديما حزينة تنظر إلى أدهم وقالت له: أحزين على خالد يا أدهم؟

قال أدهم والحزن يكسي وجهه: بالطبع حزين عليه. نعم كنت أغضب منه لكنه لا يستحق أن يموت هكذا وفي عمره هذا.